الدَّرسُ السَّابع (7)
اِستغلالُ أساليب الخطاب في الاِنحرافِ في التَّفسير
(أوَّلاً: أسلوب الحذف)

المسألةُ الأولى: المقصود بأساليب الخطاب وأمثلةٌ عليها

– المقصود بأساليب الخطاب: مسالك العرب في التعبير عن أغراضهم، وطرائقهم في الإعراب عن دواخلهم، والإفصاح عن مكنوناتهم؛ من التقديم والتأخير، والحذف والإثبات، والحقيقة والمجاز، والكناية والتَّعريضِ، ومخالفة ظاهر اللَّفظ لمعناه، وغيرها من أفانين العرب في قولها وسننها في كلامها[1].

– وقد كتب فيها كثيرٌ من أهل العلم بالقرآن واللُّغة العربيَّة، على نحو ما نجدُ عند ابنِ قُتيبةَ رحمه الله (ت:276هـ) في (تأويل مُشكِلِ القُرآن)، أو ابن فارسٍ رحمه الله (ت:395هـ) في (الصاحبي)، أو الثَّعالبيِّ رحمه الله (ت:429هـ) في (فقه اللغة)، مِنْ مثل:

– إخراجُ الكلامِ بلفظِ الواحدِ والمرادُ جمعٌ. قال ابنُ قُتيبة رحمه الله (ت:276هـ): «والعرب تقول: فلان كثير الدرهم والدينار، يريدون الدراهم والدنانير. وقال الشاعر:

هـمُ المولى وإن جَنَفُوا علينا * وإنَّا من لقائِهِمُ لَزُورُ

وقال الله ﷻ: (هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قاتَلَهُمُ اللَّهُ)[المنافقون:4]، أي الأعداء، (وَحَسُنَ أُولئِكَ رَفِيقاً) [النساء:69]، أي رفقاء. وقال الشاعر:

فقلنا: أسلموا إنَّا أخوكم * وقد بَرِئَتْ مِنَ الإِحَنِ الصُّدُورُ»[2].

---

[1] لابن قُتيبة رحمه الله في صدر كتابه (تأويل مشكل القرآن) كلامٌ نفيسٌ عن الأساليب العربيَّة ومقامات القول، من جُملته: «فالخطيب من العرب، إذا ارتجل كلاما في نكاح، أو حمالة، أو تحضيض، أو صلح، أو ما أشبه ذلك – لم يأت به من واد واحد، بل يفتنُّ؛ فيختصر تارة إرادة التخفيف، ويطيل تارة إرادة الإفهام، ويكرّر تارة إرادة التوكيد، ويخفي بعض معانيه حتى يغمض على أكثر السامعين، ويكشف بعضها حتى يفهمه بعض الأعجميين، ويشير إلى الشيء ويكني عن الشيء. وتكون عنايته بالكلام على حسب الحال، وقدر الحفل، وكثرة الحشد، وجلالة المقام. ثمّ لا يأتي بالكلام كلّه، مهذّبا كلّ التّهذيب، ومصفّى كلّ التّصفية، بل تجده يمزج ويشوب، ليدل بالنّاقص على الوافر، وبالغثّ على السمين. ولو جعله كلّه نَجْرًا واحدا، لبخسه بهاءه، وسلبه ماءه». ص17–18.

[2] ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، ص174.

– أسلوب تسمية الشَّيءِ بالشَّيء المتعلِّق به والمتسبِّب فيه. قال ابن فارسٍ رحمه الله (ت:395هـ): «قال علماؤنا: العرب تسمّي الشيءَ باسم الشيءِ إِذَا كَانَ مجاوراً لَهُ أَوْ كَانَ منه بسبب. وذلك قولهم (التيمُّم) لَمَسْح الوجه من الصعيد، وإنما التيمّم الطلب والقصد؛ يقال: تيمَّمْتُك وتأمَّمْتُك؛ أي تعمَّدْتُكَ.

ومن ذَلِكَ تسميتهم السحاب (سماءً) والمطر (سماء)، وتجاوزوا ذلك إِلَى أن سموا (النبتَ سماءً). قال شاعرهم: إِذَا نَزَل السماءُ بأرضِ قومٍ * رعيناهُ وإن كانُوا غِضَابَا [...]

وذكر ناسٌ أنَّ من هذا الباب قوله جل ثناؤه: (أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ)[الزمر:6]، يعني خلق. وإنما جاز أن يقول: (أنزل)؛ لأن الأنعام لا تقوم إلاَّ بالنبات، والنبات لا يقوم إلاَّ بالماء، والله جلّ ثناؤه يُنزِل الماءَ من السماء. قال: ومثله: (قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا)[الأعراف:25]، وهو جلّ ثناؤه إنما أَنْزَلَ الماء، لكن اللباس من القطن، والقطن لا يكون إِلاَّ بالماء. قال: ومنه قوله جلّ ثناؤه: (وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا)[النور:33]، إنما أراد –والله أعلم– الشيء يُنْكَحُ بِهِ من مَهْر ونَفقة، ولا بد للمتزوج بِهِ منه»[1].

– من الأساليب العربيَّة كذلك؛ الخطابُ باسم المفعول والمرادُ اسم الفاعل، وكذلك العكس؛ أي الخطاب باسم الفاعل والمرادُ اسم المفعول. قال الثَّعالبيُّ رحمه الله (ت:429هـ): «الفصل العشرون: في المفعول يأتي بلفظ الفاعل.

تقول العرب: سرٌّ كاتِم، أي مكتوم، ومكان عامرٌ، أي معمور. وفي القرآن: (لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ)[هود:43]، أي: لا مَعصوم. وقال تعالى: (خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ)[الطارق:6]، أي: مدفوق. وقال: (فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ)[الحاقة:21]، أي: مَرضيَّة. وقال الله سبحانه: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً)[العنكبوت:67]، أي: مأمونا. وقال جرير: [من الكامل]

إنَّ البَليَّة مَنْ تَمَلُّ كلامهُ * فانقَع فُؤادكَ مِنْ حَديثِ الوامِقِ

الفصل الحادي والعشرون: في الفاعل يأتي بلفظ المفعول.

كما قال تعالى: (إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيّاً)[مريم:61]، أي: آتيا. وكما قال ﷻ: (حِجَاباً مَسْتُوراً)[الإسراء:45]، أي: ساترا»[2].

[1] ابن فارس، الصاحبي، ص57–58.

[2] الثعالبي، فقه اللغة وسر العربيَّة، ص229.

– وقد أصبحت هذه المباحثُ تُعرَفُ في كتب علوم القرآن وقواعد التَّفسير بـ(أساليب القرآن) كما هي عند الزَّركشيِّ رحمه الله (ت:794هـ) في (البرهان)[1]، أو (وُجوه مُخاطباته) كما هي عند السيوطيِّ رحمه الله (ت:911هـ) في (الإتقان)[2].

المسألةُ الثَّانية: أمثلةٌ على استغلال المُفسِّرين (أسلوب الحذف) في الانحراف بالتَّفسير

لا يخفى أنَّ هذه الطرائق في التعبير، كانت مطيَّة لطائفة من المفسِّرين، لتمرير المعتقد بخلفيَّة سابقة؛ لا عن تحرٍّ واجتهاد، ومن أكثر الأساليب التي استُعملت في ذلك (أسلوب الحذف).

– وَالحذفُ لُغَةً: الْإِسْقَاطُ، وَمِنْهُ حَذَفْتُ الشَّعْرَ إِذَا أَخَذْتَ مِنْهُ. وَاصْطِلَاحًا: إِسْقَاطُ جُزْءِ الْكَلَامِ أَوْ كُلِّهِ لِدَلِيلٍ[3]. ومن أمثلته ما ذكر ابنُ قتيبة رحمه الله (ت:276هـ): «(وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ)[البقرة:93]، أي حُبَّهُ. و(الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُوماتٌ)[البقرة:197]، أي وقت الحج. وكقوله: (إِذاً لَأَذَقْناكَ ضِعْفَ الْحَياةِ وَضِعْفَ الْمَماتِ)[الإسراء:75]، أي ضعف عذاب الحياة، وضعف عذاب الممات. وقوله سبحانه: (لَهُدِّمَتْ صَوامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَواتٌ وَمَساجِدُ)[الحج:40]، فالصلوات لا تهدَّم، وإنما أراد بيوت الصلوات»[4].

وَمِمَّا ينبغي التَّنبيه عليه قبل أن ننتقل إلى الأمثلة التَّطبيقيَّة؛ أنَّ الْحَذْفَ خِلَافُ الْأَصْلِ، وَعَلَيْهِ يَنْبَنِي فَرْعَانِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّه إِذَا دَارَ الْأَمْرُ بَيْنَ الْحَذْفِ وَعَدَمِهِ؛ كَانَ الْحَمْلُ عَلَى عَدَمِهِ أَوْلَى لِأَنَّ الْأَصْلَ عَدَمُ التَّغْيِيرِ. وَالثَّانِي: أَنَّه إِذَا دَارَ الْأَمْرُ بَيْنَ قِلَّةِ الْمَحْذُوفِ وَكَثْرَتِهِ؛ كَانَ الْحَمْلُ عَلَى قِلَّتِهِ أَوْلَى[5].

1– قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾[الأحزاب:72].

– ومعنى الآيةِ عند أهل العلم بالتَّفسير: إن الله عرض طاعته وفرائضه على السماوات والأرض والجبال على أنها إن أحسنت أُثِيبت وجُوزِيت، وإن ضَيَّعَت عُوقِبَتْ، فأبت حملها شفقًا منها أن لا تقوم بالواجب عليها، وحملها آدم (إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا) لنفسه (جَهُولًا) بالذي فيه الحظُّ له. عن ابن عباسٍ ﷺ قوله: (إِنَّا عَرَضْنَا

---

[1] عقد له الزركشي رحمه الله النوعَ السادس والأربعين: في أسالب القرآن وفنونه البليغة، البرهان، ج2، ص382.

[2] عقد له السيوطي رحمه الله النوعَ الحاديَ والخمسين: في وجوه مخاطباته، الإتقان، ج3، ص109. ويُنظر كذلك: خالد السبت، مختصرٌ في قواعد التفسير، ص9.

[3] يُنظر: الزركشي، البرهان، ج3، ص102.

[4] ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، ص133.

[5] يُنظر: الزركشي، البرهان، ج3، ص104.

الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ)، إنْ أَدَّوْهَا أثابهم وإن ضيعوها عذبهم، فكرهوا ذلك، وأشفقوا من غير معصية، ولكن تعظيما لدين الله أن لا يقوموا بها، ثم عرضها على آدم فقبلها بما فيها، وهو قوله: (وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولا) غرًّا بأمر الله ﷻ[1].

وقد نقل ابنُ الأنباريِّ رحمه الله (ت:328هـ)، «عن ابن جُرَيْج، قال: حُدِّثت أَنَّ الله لما خلق السَّموات والأَرضَ والجِبالَ، قال: إِنِّي فارضٌ فريضةً، وخالقٌ جنَّةً وناراً، وثواباً لمن أَطاعني، وعقاباً لمن عَصاني، فقالت السَّموات: خلقْتَنِي وسخَّرتَ فِيَّ الشمس والقمر والنجوم والرياح والسحاب والغيوث، فأَنا مسخّرة على ما خلقتني، لا أَتحمَّل فريضة، ولا أَبغي ثواباً ولا عقاباً. وقالت الأَرض: خلقتَني وسخَّرتَ فِيَّ الأَنهار، وأَخرجتَ منِّي الثمار، وخلقتَني لما شئت، فأَنا لا أَتحمَّل فريضة، ولا أَبغي ثواباً ولا عقاباً، وقالت الجبال: خلقتَني رواسيَ للأَرض، فأَنا على ما خلقتَني، لا أَتحمَّل فريضة، ولا أَبغي ثواباً ولا عقاباً. فلمَّا خلق آدم عليه السلام عَرضَ ذلك عليه فتحمَّله، فقال الله ﷻ: (إِنَّه كَانَ ظَلُومًا) ظلمُه نَفْسَه في خطيئته، (جَهُولاً) بعقاب ما تحمَّله»[2].

ومُجمَلُ ما في هذه الآثار عن السَّلفِ؛ أنَّ عرضَ الأمانةِ على السماوات والأرض والجبال وقعَ حقيقةً، وهو ما يقتضيه ظاهر الكلام.

– ولكنَّ قومًا من المؤوِّلة ممَّن لم تحتمل عُقُولهم إثباتَ التَّمييزِ لغير العقلاء؛ كالسُّجود والتَّسبيح والخشوع والخشية والعرضِ، وغير ذلك ممَّا تزخرُ به نصوص الكتاب والسُّنَّة، فلجأوا إلى الإنحراف بها وتأويلها؛ فلم يسلم منها نصٌّ من التَّأويل بشكلٍ من الأشكال، والَّذي يُهِمُّنا في هذا المقامِ، استعمالُهم لـ(أسلوب الحذف) في عمليَّة التَّأويل، وممَّا قالوا في هذه الآية على سبيل المثال:

«مُحَالٌ أَن يكون الله جل جلاله عرضَ الأَمانة على السَّموات في ذاتها، لأَنَّها ممَّا لا يُكلَّفُ عملاً، ولا يَعْقل ثواباً، وإِنَّما المعنى: إِنَّا عرضنا الأَمانة على أَهل السَّموات وأَهل الأَرض وأَهل الجبال، فأَبَوْا أَن يحملوها، فحُذِف (الأَهل) وقام الذي بعده مقامه، وجعل (أَبَيْن) للسموات والأَرض والجبال؛ لقيامها مقام (الأَهل)، كما قالوا: يا خيلَ الله اركبي، وأَبشري بالجنَّة، أَرادوا: يا فرسان خيل الله اركبوا، فأُقيم الخيل مقام الفُرْسان، وصُرِف الرُّكوب إِليها»[3].

---

[1] يُنظر: ابن جرير، جامع البيان، ج20، ص335-336.

[2] ابن الأنباري، الأضداد، ص390.

[3] أورده ابن الأنباري في الأضداد قولاً لبعض الناس، 391-392.

وقد ذكر هذا التَّأويل الرَّازيُّ رحمه الله (ت:606هـ) وأنَّه أحد المحتملات في الآية فقال: «الْمُرَادُ أَهْلُوهَا، فَفِيهِ إِضْمَارٌ تَقْدِيرُهُ: إِنَّا عرضنا الأمانة على أهل السموات وَالْأَرْضِ»[1].

بل إنَّ بعضَهمُ اجترأَ على إنكارِ هذا (العرضِ) صراحةً. قال ابن الأنباريِّ رحمه الله (ت:328هـ): «وقال آخرون: ما عرض الله جلَّ ذكره الأَمانةَ على السَّموات والأَرض قطُّ، وإِنَّما هذا من المجاز على قول العرب: عَرَضْت الحِمْل على البعير فأَبى أَن يَحْمِله، أَي وجدت البعير لا يصلح للحَمْل ولا للعَرْض، فكذلك السَّموات والأَرض والجِبال، لا تصلح للأَمانة ولا لعَرْضِها عليها»[2].

– ونتيجة هذا التَّفسير، تحكيمُ المقرَّرات العقليَّة السَّابقة على نُصُوص الشَّرعِ، وحملُها عليها حملاً مُتَعسِّفًا باستخدامِ سَعة اللُّغة وإمكانها، وتعدُّدِ أساليبها وأفانينها.

2– قوله تعالى: ﴿**وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا**﴾[الفجر:22].

من أشهر النُّصوص الَّتي سلَّط عليها أهل التَّأويل (أسلوب الحذف) هذه الآية.

– ومعناها عند أهل الرَّاسخين: أنَّها صفةُ المجيءِ لله ﷻ يوم القيامة لفصل القضاءِ. قال ابنُ جريرٍ رحمه الله (ت:310هـ): «وقوله: (وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا) يقول تعالى ذكره: وإذا جاء ربك يا محمد وأملاكه صفوفًا صفًّا بعد صفٍّ»[3]. وذكر هنالك أحاديث مرفوعة وآثارًا موقوفة في تفصيل مجيءِ الله ﷻ يوم القيامة[4]. وهذا المعنى موجود في غير هذه الآية، من مثل قوله تعالى: (هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ)[البقرة:210]. وقوله ﷻ: (هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاّ أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ)[الأنعام:158][5].

---

[1] الرازي، مفاتيح الغيب، ج25، ص187.

[2] ابن الأنباري، الأضداد، ص392.

[3] ابن جرير، جامع البيان، ج24، ص417.

[4] منها على سبيل المثال، أثر الضحاك بن مزاحم، قال: إذا كان يوم القيامة، أمر الله السماء الدنيا بأهلها، ونزل من فيها من الملائكة، وأحاطوا بالأرض ومن عليها، ثم الثانية، ثم الثالثة، ثم الرابعة، ثم الخامسة، ثم السادسة، ثم السابعة، فصَفُّوا صفًا دون صفٍّ، ثم ينزل الملِكُ الأعلى على مجنبته اليسرى جهنم، فإذا رآها أهل الأرض ندُّوا، فلا يأتون قطرا من أقطار الأرض إلا وجدوا سبعة صفوف من الملائكة، فيرجعون إلى المكان الذي كانوا فيه فذلك قول الله: (إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ) ، وذلك قوله: (وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ) وقوله: (يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ فَانْفُذُوا لا تَنْفُذُونَ إِلا بِسُلْطَانٍ) وذلك قول الله: (وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا). ج24، ص418.

[5] يُنظر: ابن عثيمين، شرح الواسطية، ج1، ص274 وما بعدها.

– إلاَّ أنَّ أهل التَّأويل على مختلف مذاهبهم، ممَّن يُنكرُ صفة الإتيان والمجيءِ لله ﷻ ذهبُوا في صرف الآية عن ظاهرها كلَّ مذهب، ومن جُملة ما لجأوا إليه في ذلك (أسلوب الحذف).

فذهب بعضُهم إلى تقدير المحذوف: وجاءت آياتُ ربِّكَ، وبَدَتْ مظاهرُ قُدرته وسلطانه. قال الزَّمخشريُّ رحمه الله (ت:538هـ): «فإن قلت: ما معنى إسناد المجيء إلى الله، والحركة والانتقال إنما يجوزان على من كان في جهة؟ قُلتُ: هو تمثيلٌ لظهور آيات اقتداره وتبين آثارِ قهره وسلطانه»[1].

وقد جمع الرَّازي غفر الله له (ت:606هـ) جُملة ما ورد من تأويلاتٍ للآية في قوله: «قَوْلُهُ ﷻ: (وَجاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا)، وَاعْلَمْ أَنَّهُ ثَبَتَ بِالدَّلِيلِ الْعَقْلِيِّ أَنَّ الْحَرَكَةَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى مُحَالٌ، لِأَنَّ كُلَّ مَا كَانَ كَذَلِكَ كَانَ جِسْمًا، وَالْجِسْمُ يَسْتَحِيلُ أَنْ يَكُونَ أَزَلِيًّا، فَلَا بُدَّ فِيهِ مِنَ التَّأْوِيلِ، وَهُوَ أَنَّ هَذَا مِنْ بَابِ حَذْفِ الْمُضَافِ وَإِقَامَةِ الْمُضَافِ إِلَيْهِ مَقَامَهُ، ثُمَّ ذَلِكَ الْمُضَافُ مَا هُوَ؟ فِيهِ وُجُوهٌ أَحَدُهَا: وَجَاءَ (أَمْرُ رَبِّكَ) بِالْمُحَاسَبَةِ وَالْمُجَازَاةِ، وَثَانِيهَا: وَجَاءَ (قَهْرُ رَبِّكَ) كَمَا يُقَالُ: جَاءَتْنَا بَنُو أُمَيَّةَ أَيْ قَهْرُهُمْ، وَثَالِثُهَا: وَجَاءَ (جَلَائِلُ آيَاتِ رَبِّكَ)، لِأَنَّ هَذَا يَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَفِي ذَلِكَ الْيَوْمِ تَظْهَرُ الْعَظَائِمُ وَجَلَائِلُ الْآيَاتِ، فَجُعِلَ مَجِيئُهَا مَجِيئًا لَهُ تَفْخِيمًا لِشَأْنِ تِلْكَ الْآيَاتِ، وَرَابِعُهَا: وَجَاءَ (ظُهُورُ رَبِّكَ)، وَذَلِكَ لِأَنَّ مَعْرِفَةَ اللَّهِ تَصِيرُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ ضَرُورِيَّةً؛ فَصَارَ ذَلِكَ كَظُهُورِهِ وَتَجَلِّيهِ لِلْخَلْقِ، فَقِيلَ: وَجاءَ رَبُّكَ أَيْ زَالَتِ الشُّبْهَةُ وَارْتَفَعَتِ الشُّكُوكُ، خَامِسُهَا: أَنَّ هَذَا تَمْثِيلٌ لِظُهُورِ آيَاتِ اللَّهِ وَتَبْيِينِ آثَارِ قَهْرِهِ وَسُلْطَانِهِ، مُثِّلَتْ حَالُهُ فِي ذَلِكَ بِحَالِ الْمَلِكِ إِذَا حَضَرَ بِنَفْسِهِ، فَإِنَّهُ يَظْهَرُ بِمُجَرَّدِ حُضُورِهِ مِنْ آثَارِ الْهَيْبَةِ وَالسِّيَاسَةِ مَا لَا يَظْهَرُ بِحُضُورِ عَسَاكِرِهِ كُلِّهَا وَسَادِسُهَا: أَنَّ الرَّبَّ هُوَ الْمُرَبِّي، وَلَعَلَّ مَلَكًا هُوَ أَعْظَمُ الْمَلَائِكَةِ هُوَ مُرَبِّي لِلنَّبِيِّ ﷺ جَاءَ، فَكَانَ هُوَ الْمُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ: (وَجاءَ رَبُّكَ)».

– كُلُّ هذه التَّأويلات المتَكَلَّفةِ المستقلةِ من تقديرٍ للمحذوف، فرارًا من إثبات صفة المجيءِ لله ﷻ الَّتي أثبتها الله ﷻ لنفسه، وأثبتها له أعلمُ الخلق به ﷺ، وفسَّر بها السَّلف الصَّالحون من الصَّحابة والتَّابعين. قال ابنُ قتيبة رحمه الله (ت:276هـ) في بيان مُجمل اعتقاد السلف في صفات الله ربِّ العالمين: «وعدلُ القولِ في هذه الأخبار؛ أن نؤمن بما صحَّ منها بنقل الثقات لها، فنؤمن بالرؤية والتجلي، وإنه يعجب، وينزل إلى السماء الدنيا، وأنه على العرش استوى، وبالنفس واليدين، من غير أن نقول في ذلك بكيفية أو بحد، أو أن نقيس على ما جاء ما لم يأت، فنرجو أن نكون في ذلك القول والعقد على سبيل النجاة غداً إن شاء الله تعالى»[2].

[1] الزمخشري، الكشاف، ج4، ص751.

[2] ابن قتيبة، الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية، ص53.

وقال ابن القيِّم رحمه الله (ت:751هـ) في إنكارِ تقدير محذوفاتٍ في كتاب الله لم يدلَّ عليها دليلٌ: «وهو حال أكثر الكلام؛ فإنه لو سلط عليه الإضمار، فسد التخاطب، وبطلت العقود والأقارير، والطلاق والعتاق، والوصايا والوقوف، والشهادات، ولم يفهَمْ أحَدٌ مُرادَ أحدٍ؛ إذ يمكنه أن يضمر كلمة تغير المعنى ولا يَدُلُّ المخَاطَبَ عليها.

وباب الإضمار لا ضابط له؛ فكل من أراد إبطالَ كلامِ مُتَكلِّمٍ؛ ادَّعَى فيه إضمارا يخرجه عن ظاهره، فيدَّعي ملحدٌ الإضمارَ في قوله ﷻ: (وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً)[النساء:164]، أي: وكلم ملك الله موسى، ويدعي في قوله: (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى)[طه:5]، إضمار ملك الرحمن، كما ادعى بعضهم الإضمار في قوله ﷺ: (ينزل ربنا) أي: مَلَكُ ربنا، وفي قوله ﷻ: (وَجَاءَ رَبُّكَ)[الفجر:22]، أي: مَلَكُ ربك. ولو علم هذا القائل أنه قد نهج الطريق وفتح الباب لكل ملحد على وجه الأرض وزنديق وصاحب بدعة يدعي فيما يحتج به لمذهبه عليه إضمار كلمة أو كلمتين نظير ما ادعاه لاختار أن يخرس لسانه، ولا يفتح هذا الباب على نصوص الوحي، فإنه مدخل لكل ملحد ومبتدع ومبطل لحجج الله من كتابه، ومن رأى ما أضمره المتأولون من الرافضة والجهمية والقدرية والمعتزلة مما حرفوا به الكلم عن مواضعه، وأزالوه به عن ما قصد له من البيان والدلالة، علم أن لهم أوفر نصيب من مشابهة أهل الكتاب الذين ذمهم الله بالتحريف واللي والكتمان، أفترى يعجز الجهمي عن الإضمار في قوله ﷺ: (إنكم ترون ربكم عيانا) فيضمر: ملك ربكم ونعيمه وثوابه، ونحو ذلك، ويعجز الملحد عن الإضمار في قوله ﷻ: (وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ)[الحج:7] أي: أرواح من في القبور. وإذا انفتح سد يأجوج ومأجوج؛ أقبلوا من كل حدب ينسلون»[1].

3- قوله تعالى: ﴿**يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ**﴾[ق:30]، قالوا: إنَّ في الآيةِ حَذْفَ مضافٍ، والمعنى: يومَ نقولُ لِخَزَنَة جهنَّمَ، ويقولُ خَزَنَةُ جهنَّمُ، فحذفَ الخَزَنَةَ وأقامَ جهنَّمَ مقامَهُم. قال ابن الأنباريِّ رحمه الله (ت:328هـ): «وقالَ بعضُ النَّاس: معنى الآية: يوم نقول لخزنة جهنم هل امتلأت، وتقول الخزنة هل من مزيد؟، فحذف الخزنة وأُقيمت جهنم مقامهم؛ كما تقول العرب: استتبَّ المجلس، وهم يريدون أَهل المجلس، وكما يقولون: يا خيل الله اركبي، وهم يريدون يا فرسان خيل الله اركبوا»[2].

وهذا القول إخراجٌ للخطابِ عن حقيقته دون مُسوِّغٍ، والصوابُ أنَّ الله الذي أنطقَ كُلَّ شَيءٍ يقولُ لجهنَّم قولاً، وجهنَّمُ ترد عليه قولاً، ولا مجالَ لإخراج الكلامِ عن حقيقتِهِ إلاَّ عندَ أصحابِ العقولِ الضَّيِّقَةِ التي

[1] ابن القيم، الصواعق المرسلة، ج2، ص711-712.

[2] ابن الأنباري، الأضداد، ص194.

لا تَقْدُرُ الله حَقَّ قدرِهِ، وتستبعدُ أنْ يجعلَ الجماداتِ منْ أهلِ المقالِ والإحساسِ، وقدْ حملَ العلماءُ هذا الخطابَ وأمثالَه على الحقيقةِ، قالَ الكرمانيُّ رحمه الله (ت:505هـ) – رغم أنَّهُ مُؤوِّلٌ –: «وجُلُّ المفسرينَ على أنَّ القولَ في الآيةِ حقيقةٌ»[1]، وهذا هو الصواب الذي فسرها به السلف من الصحابة والتابعين[2]. قال ابن جرير رحمه الله (ت:310هـ): «وأولى القولين في ذلك عندي بالصواب قول من قال: هو بمعنى الاستزادة، هل من شيء أزداده؟

وإنما قلنا ذلك أولى القولين بالصواب لصحة الخبر عن رسول الله ﷺ [..] عن أبي هُريرة، أن رسول الله ﷺ قال: (إِذَا كانَ يَوْمُ القِيامَةِ، لَمْ يَظْلِمِ اللهُ أحَدًا مِنْ خَلْقِهِ شَيْئا، وَيُلْقِي فِي النَّارِ، تَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ، حتى يَضَعَ عَلَيْها قَدَمَهُ، فَهنالكَ يَمْلأها، وَيُزْوَى بَعْضُها إلى بَعْضٍ وَتَقُولُ: قَطْ قَطْ).

[... و] عن أنس رضي الله عنه، قال: "ما تزال جهنم تقول: هل من مزيد؟ حتى يضع الله عليها قدمه، فتقول: قدِ قدِ، وما يزال في الجنَّةِ فضلٌ حتَّى يُنْشِئَ اللهُ خلقًا، فيُسكنه فضول الجنة"»[3].

[1] الكرماني، غرائب التفسير، صج2، ص1133.

[2] يُنظر: الطيار، التفسير اللغوي، ص548-549.

[3] ابن جرير، جامع البيان، ج22، ص361.